

الذات ، الوطن و التاريخ في الخطاب الروائي الجزائري . د. فتيحة كحلوش جامعة سطيف2

إن أحد الرهانات العميقة للفلسفة في عصورنا الحديثة هي إعادة التفكير في الذات بمعزل عن الهوية بما هي معطى مسبق ، أي إعادة صياغة الأسئلة حول الذات الإنسانية في بحثها عن علاقات متوازنة مع عوالمها الجديدة المتجددة باستمرار ، لا في علاقتها الثابتة بلغتها التي هي لسان بوح لا أكثر " فكل الألسنة متساوية في نظر الله" (1)، ولا في علاقتها بدينها، فكل الأديان جميلة -نظريا- و جديرة بالاعتقاد ، و لا في علاقتها بجغرافيتها الخاوية من المعنى ، فكل الشعوب بحار و أنهار و هندسات تملؤها بصخبها اليومي . إن هذه العناصر الثلاثة (اللغة- الدين -الوطن) هي غالبا المقومات الأساسية لهوية "مقدسة" تمنع الذات من الاستمرارية في الوجود فكرا و مساءلة ، وهذه العناصر هي في الوقت نفسه " ما نحن دون أي جهد وجودي خاص ، في حين أن الذات هي ما نستطيع أن نكون و لكن لم نجرؤ بعد على الاضطلاع به كأفق حر و وحيد لأنفسنا " (2) كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف فتحي المسكيني . لكن يبدو أن الأدب أكثر جرأة من الفلسفة في بحثه عما تستطيع أن تكونه الذات ، و هذا يعود ربما إلى طبيعته التخيلية الاحتمالية التي لا تتبعها مسؤولية "ضرورة" الصدق .

رواية " أصابع لوليتا" (3) للكاتب الجزائري واسيني الأعرج نموذج هام في هذا السياق، إنها نص ثخين بحمولة تاريخية ، فكرية ، و إيديولوجية ثقيلة جدا ، قد لا يعكسها العنوان مثلما يحصل في معظم أعمال هذا الكاتب . تقارق الرواية عنوانها - بوصفه بنية مرجعية تحدد هوية الكتاب- مثلما يفارق البطل اسمه - بوصفه هوية تختزل التعريف به- و من هنا تبدأ الشروخ في مسار الحكيم الذي ينتج عنه نص الكاتب و في مسار القراءة التي تُنتج بدورها نصا شبيها قليلا أو كثيرا بالنص الأصلي.

"أصابع لوليتا" عنوان لا يشي - حتى في إحياءاته المؤجلة- إلا بقصة عاطفية، استثنائية حتما، بطالتها ناعمة و تقطر دلالات . و المؤكد أن المولع بهذه الأصابع يكبرها بكثير ، " فلوليتا" تخرج من لسان مسن إلى ملاك صغير ، و هذا ما ستؤكد منعرجات الرواية غير أنها - و عبر هذه اللوليتا تحديدا- ستقول الأخطر عن السياسة و التاريخ و الدين و الوطن ، تماما كيونس مارينا الذي ، عندما تخلص من اسمه -أو أسمائه الأولى- استطاع الانتقال من كاتب مقالات في جريدة سرية إلى كاتب روايات يحتمي به العالم كله و يُترجم إلى عشرات اللغات .

تأتي رواية أصابع لوليتا مجسدة محنة الكتابة و متوجة لكتابة المحنة التي انخرط فيها واسيني منذ التسعينيات من القرن الماضي. ففي أوطان لازم القهر تاريخها لا فرق بين أن نقول مهنة الكتابة أو محنة الكتابة. الفرق حرفان مقاربان بل متماهين . أن تكون كاتباً معناه أن تستعد للمطاردة و المنفى الأبديين ، لقد لازمت هذه الوضعية-وضعية الرحيل و الترحيل- الأبطال النخبويين لمعظم روايات واسيني ، و الترحيل تقليد عريق في كواليس السلطة العربية، ألم يُرحّل ابن رشد من قبره نحو الأندلس و رُحِّل معه كتبه " مثل شيء غير مفيد ، و ثقل لا جدوى منه ، مزعج لا يصلح سوى لمعادلة تابوت"؟ (4) هكذا شأن أبطال واسيني الذين هم في الواقع تنويعات لسيرة لا تتضرب حيث من العبث البحث عن شخصيات الرواية خارج سيرة صاحبها، و حيث "كتب" تعادل بشكل ما " كذب" أيضا. تقول لوليتا" على كل حال الفرق بين كتب و كذب فرق في حرف واحد ، يندثر فيه معنى و ينشأ آخر ، بل يتداخلان أحيانا. الكتابة تصبح كذبة و الكذبة يمكن أن تتحول إلى كتاب جميل " (5) إن اليومي القاهر حدّ الغرابة في وطن الكاتب يصير كذبة لا تصدق ، و الخيالي البعيد بأوهامه و أفراده الصغيرة يحاك في لغة لها انزياحياتها المثيرة التي تقنعك بإمكانية الحياة على ذلك النحو الكاذب / الفائن . ماذا يخسر الناس لو تمتعوا بشطط الخيال ؟ ماذا تخسر الشعوب لو تركت قاداتها و أديانها و أحلامها في الريادة و انخرطت في تجربة "هبل" مشتركة تتبادل فيها ثقافات و عاداتها و أوهامها الجميلة؟ فيما أن " حوار الهويات غير ممكن فلم لا يكون الحوار بين الذوات؟" (6) لعل أعمال واسيني -و منها أصابع لوليتا موضوع المقاربة- تعي تماما قيمة التواصل بين الذوات في ظل استحالة التوافق بين الهويات

فتشتغل في المسكوت عنه من الخطاب على توريث قارئها في مجموعة من البدائل و الإمكانات الفكرية/ الوجودية التي صارت من قناعات صاحبها فراح يكررها بشكل أو بآخر مع كل عمل روائي جديد .

لعل أولى هذه الإمكانات الوجودية تتمثل في ما يمكن الاصطلاح عليه مع الفكر المعاصر "بنهاية" الوطن . ليس الوطن فقط تلك البقعة الجغرافية التي ولدنا بها و انتمينا إلى قيمها و ثقافتها و أعطتنا قانونيا ورقة تسمى الجنسية، الوطن هو العيش "بسلام" قبل كل شيء، و يونس مارينا لم يصل إلى هذه القناعة فجأة بل بعد تاريخ من الانكسارات و الآلام التي لم يداوها عمر من الحرية و الأمان في وطن " الآخر " . إن وطن يونس مارينا الأصلي الذي منحه بطاقة هوية سرعان ما سحبها منه لمجرد أنه كتب بحب عن " الرايس بابانا" فكان لا بد من لعبة التخفي الضرورية لمواصلة العيش في وطن سرق منه أباه شهيدا و عوضه عن تلك الخسارة بالرقابة و المطاردة . لقد انتقل بين أكثر من هوية لكي لا يقتله الوطن "اسم عائلي مات منذ أن بدأ الكتابة ، اسم مستعار حميد زازو لم يستعمله إلا مرة واحدة أثناء العبور في مرسيليا، و اسم صاحبه كل عمره لأن مصدره حلم غريب و جنون لا يحسد عليه : يونس مارينا" (7) و لا تتوقف الرواية عند مثل هذه الإشارات بل تتخذها مطية لتعرية التاريخ و محن ما بعد الاستقلال بشكل مباشر، حيث يلاحظ القارئ التعاطف الكبير مع الرئيس بن بلة و النقمة الواضحة على " الانقلابي" هواري بومدين . الأول "بابانا" كلما ذكر في الرواية و الثاني "العقيد" و شتان بين اللفظتين. الأول والد كل الجزائريين -برأي يونس مارينا- و الثاني ضابط بمحاكم تقتيش لا تميز بين ابن " البيت" و ابن الجيران ، و لعل هذه مشكلة الوطنيين الكبار " يمكن أن ينتقلوا بسرعة من المناضل إلى الطاغية الصغير" (8) فيتحول ما كان بطوليا في ذواتهم إلى وحشية لا حدود لها يقول عبد الله القصيمي: " إن عدوا متوحشا ضاريا ليغزو العالم اليوم ، يغتال كرامته و ذكائه و حريته و كبريائه ، و يضعف فيه جميع التعبيرات الإنسانية . ذلك هو الحكم الوطني المطلق المتعاضد القوة و البطش" (9) إن هذا ما سيخلص إليه نص "أصابع لوليتا " في النهاية و لكن بعد أن يصفي كثيرا من الحسابات مع تاريخ وطن عازم على الاستمرارية في غيّه ، فهذا الوطن قاهر مرة باسم الوطنية و مرة باسم الدين و مرة باسم اللغة ، و في كل الحالات يدفع المثقفون و المبدعون ثمن ذلك من حياتهم و أفكارهم . لقد كان يونس مارينا في البداية مسكونا بأرضه ، كان في أيام المنفى الأولى يذهب إلى المطار فقط ليشم رائحة الوطن العالقة بالقادمين من وطنه ، نزع لوحة وجددها على حائط المنزل و وضع "قي مكانها ، بوطنية زائدة خارطة بلاده الكبيرة و ظل يبحث فيها عن مدينة مارينا. لم يجدها فوضع دبوسا صغيرا بلون أحمر، في المكان الذي تخيله الأقرب قبل أن ينزعها بعد أن أدرك بأن كل ما نرحل به و نعلقه في الذاكرة أو على الحيطان لشحن القلب نحو المزيد من الاستمرار في الحب ، علينا أن نتعلم كيف نقتل بعضه على الأقل" (10) لقد كبر الطفل العاشق للأرض/ الوطن و أدرك في النهاية أن الوطن شبيه بالمرأة ، سرّه دائما في تأجيل معناه، الوطن هو الحلم بالمعنى ، إنه بعد رمزي و ليس بقعة على خريطة بائسة أو اسما في كتب التاريخ المزورة غالبا. ففي الجزائر و عندما كان الوطن حلما ملتصقا بمعاني الحب ، الحرية ، الكرامة ، السلام كان موجودا في قلوب الجميع بحرارة متساوية ، يختلف الناس فقط في درجة التعبير عنها ، لكن عندما تحقق الاستقلال و تحرر الناس من الاستعمار تحرروا أيضا من حبل المعاني الكبيرة فسقطوا في حروبهم الصغيرة حول القيادة القدرة التي لا يختلف " الأبطال" في عشقها إلا من حيث الأسلوب. لقد سرقت الحرب كثيرا من إنسانية الجزائري فتركزت شعبا بأعطاب جسدية و نفسية من الصعب تضميدها و تولى الاستقلال البقية، لقد "بشع الاستقلال أناسا كثيرين و قتل آخرين و نفى الباقي ليتخلص من ضجيجهم و ملاحظاتهم" (11) و مثل هذا التاريخ يثير في الذات الخجل و العار مما يجعل الرواية تنتقم لذاتها بوصفها شكلا من أشكال الوعي و الفكر النقدي فتعج بالأحداث / الأفعال الرمزية التي تتبرأ من وطن و تاريخ على هذه الشاكلة ، و يمكن هنا أن نضرب مثلا بإعادة مريزق المجاهد - فوق التصنيف - لبطاقة انتمائه لحزب جبهة التحرير الوطني و كل أوسمته " شفت يا خويا مريزق واش دروا فينا - تقول والدته يونس مارينا بعد فراره و تعذيبها من قبل الأمن - احذر من ذئاب العقيد فإنها أسوأ منه و بلا رحمة. لم يتمكن من السيطرة على دمعاته المنكسرة . في أحد الصباحات العاصفة خرج و لم يعد يقول الذين رأوه إنه مر على قسمة الحزب، سلم بطاقة انخراطه، ظنوه مجنونا عندما صرخ في وجوههم : لا أنا منكم و لا أنتم مني ، ثم على مقر منظمة المجاهدين ، أرجع لهم الأوسمة و الشهادات التي منحت له على مدار السنوات الثلاث اعترافا

بجهوده و نضاله . ثم على التكنة العسكرية في وسط المدينة و الملتصقة بمستشفى المدينة، ترك فيها رتبة مقدم التي اكتسبها في جيش التحرير بجدارة . و بعدها غاب نهائيا ليس فقط من بيته و لكن من مدينة مارينا كلها" (12) إن انسحاب المقدم مريزق من مدينته و من أوسمته و بطاقته الحزبية هو تبرئة للذمة من ثورة ضلت سبيلها و خانت مسارها، وهو رحيل رمزي عن وطن لا يشبه وطن الحلم الذي سكن المناضلين طوال سنوات الحرب. إن مثل هذه الخيبات كفيلة بأن تربك مفهوم الوطن عند يونس مرينا و تجعله يعيد النظر في الصروح المقدسة مما يقوده إلى مشاعر جديدة و فئات مختلفة ، الوطن هو اللغة و الكتابة و لا شيء آخر "لا أرض لي يا عزيزتي إلا لغتي" (13) فحيثما يستطيع التعبير عن ذاته بكامل الحرية فهناك وطنه. لقد منحتة باريس هذه الإمكانية فغدت مأواه الأخير كما سنرى لاحقا.

لا تختلف محنة الدين عن محنة الوطن، فقد ضاع المعنى و تتالت الحروب الدينية لتزيد من عتمة التاريخ و تنقل الناس إلى ضفاف اليأس و جبال العبيثية، و تفتح في المقابل باب السؤال أمام الفن و الإبداع. يستغل واسيني الأعرج قناع يونس مرينا ليشير إلى طبيعة نصوصه و محنة التلقي في حركة ميثاقية واضحة. يونس مرينا كتب عرش الشيطان في ذات الفضاء الذي كتب فيه واسيني " ذاكرة الماء " و " شرفات بحر الشمال " و " أنثى السراب"... يونس مرينا محكوم عليه بالإعدام في التشريع الجديد لأنه خدش ركنا هاما من أركان هوية ثابتة، مكتملة بذاتها و لا تحتاج إلى غيرها إلا كتابع لها، حراس النوايا يلاحقونه في كل مكان والأمن في بلد الديمقراطية و حرية التعبير - كما نفهم من الرواية - يتولى حراسته و السهر على أمن حياته. من هذه البوابة تناقش الرواية المسألة الدينية بوصفها مسألة شخصية ثانوية تستقيم العلاقة بين الذات ، و بين الذات و الآخر إذا هُشمت، و كفت الناس عن الاعتقاد بأن الدين هو المكون الأساسي لهوياتهم . إن الأمر الديني بالنسبة ليونس مرينا غير مقنع منذ البداية " كيف يسمح الله للشيطان أن يؤدي إنسانا خيرا فقط ليختبر قدرته على المقاومة؟ ثم يسمح له بالتحرك في الأرض بكل حرية ، و يعطيه من سلطانه على الإنسان الذي يتلقى أقصى المحن و العقوبات المجانية بسبب أخطاء لم يرتكبها أبدا ، أن لا ينكر الله ، بل و أن يحبه على الرغم من الظلم المسلط عليه ، و يتلذذ بهذا الألم المقدس " (14) لا يرى يونس مرينا في المفارقات التي ينطوي عليها الفكر الديني سوى "مازوشية" زائدة لا حاجة للإنسان بها ، ثم إن هذه المازوشية تصير مقلقة أكثر عندما يتجاوز الأمر التلذذ بالعذاب إلى تعذيب الآخر و ممارسة كل أشكال العنف المادي و الرمزي ضده ، فقط لدواعي دينية، أو لمجرد اعتقاد المرء أنه ينتهي إلى الدين "الأصح" كما يحصل في المجتمعات العربية و الإسلامية "المتعبة بإجابات هوية لم تعد قادرة على تأمين علاقتها بالعالم" (15) مع ذلك فيونس مرينا مشدود إلى السري في الأديان ، هو غير معني بالطقوس بقدر ما تعنيه الرموز ، الرموز التي تتطوي على معاني الجمال و المحبة غير المشروطة و التسامح المطلق . في واحد من مشاهد الرواية يلبي طلب محبوبته و يرافقها إلى الكنيسة ، تقول له : "يبدو أن حبك لسيدنا المسيح كبير أنت أيضا. هل أنت مسيحي ؟

-لست مسيحيا ... ما يهمني في سيدنا المسيح ليس الدين، فهو خيار شخصي ، لكن في كونه علامة لجرح هذه الدنيا القاسية . قوته التي خلده في الذاكرة الدينية هي تسامحه حتى مع قتلته " (16) لا يعنيه المسيح /النبى كرسول حامل لرسالة سماوية بقدر ما يعنيه كذات تتطوي على رمزية الجرح و أمان المخرج في النهاية، ما يهم هو الحكاية بنبيلها لا التاريخ ببطلولاته الزائفة و الوهمية في كثير من الأحيان . فالمشكلة ليست مع حكايا الأنبياء بل مع الأنبياء الجدد " مع بشر يلبسون الأديان كما يشتهونها و يفرضون علينا الشكل الذي ارتضوه لها . و لهذا لا يخلو أي دين من الملائكة و الضحايا ، لا يخلو أي دين من الشياطين و القتلة " (17). ماذا لو عدّ الناس الدين مسألة محض شخصية كما كرر واسيني في أكثر من مكان؟ ألن يختزلوا على الأقل سببا هاما جدا من أسباب نزاعاتهم و حروبهم ؟ ماذا عن "لا هوت بغير آلهة"؟ (18)

إن الرواية التي تتعاطف مع المسيح تؤرخ في المقابل لكثير من الخراب الإنساني عبر نقد الفكر الكارثي الذي يعيشه العالم اليوم و يأخذ أشكالا متعددة يتقدمها الشكل الديني أو ما يسمى بالفكر الجهادي - و هو عار آخر وصم عصرنا - تؤول إلى نهاية منسجمة مع منظورها الفكري ، و إن حملت الطابع المأساوي الواضح . إن انسحاب لوليتا التي أعدت خصيصا

لاغتيال يونس مارينا و هروبها منه في آخر لحظة عندما أتحت الفرصة الذهبية للتنفيذ له دلالات كثيرة . إن ذلك الفكر مفلس من داخله لا يقوم على قناعات صلبة،

و المستخدمون لتأديته نماذج مهزوزة من داخلها و غير متوازنة ، فلوليتا مثلاً صبية بألف جرح و بألف سبب للحقد و قد وجدت في هذا الفكر ملاذها للانتقام من العالم منذ أن بدأت تعي الدنيا وجدت نفسها محاطة بمجموعة من المفارقات " ...كان القصر الذي كنا نقيم فيه يقع في أعالي جبل، في عمق غابة تشبه الأدغال المنسية ، كنت أرى من نافذة غرفتي حتى بعض المسلحين يزورونه ليلاً: من عناقهم لهم كنت أشعر أن بينهم صداقة كبيرة، يأخذون كيساً أبيض منه ، مليئاً ربما بالنقود أو هكذا افترضت ثم ينسحبون ، هو الكيس الذي كنت أراه يسلمه في الجزائر في بداية التسعينيات لشاب لم تكن لحيته قد نبتت نهائياً ، عرفت لاحقاً أنه قتل في جبال لخضرية بعد أن أصبح قائداً للجماعات المسلحة . كنت أعرف أنه على الرغم من صلواته الخمس،

و إيمانه الظاهري على الأقل كان يشرب و يقيم علاقات كثيرة مع خداماته الأندونيسيات اللواتي كن أقل مني سناً (19) الأب المصلي الورع يمارس كل أنواع المتاجرة ، المتاجرة بالملابس و بالدين و بابتنته، و يمارس مختلف أنواع "السياحة الجنسية" على مرأى من ابنته و يصل إلى اغتصابها بعدما يعطيها مشروباً مخدراً. إن هذا الانفلات من الفطرة الإنسانية كفيل بتربية بنت بعاهات نفسية أبدية لا يُخفف من حدتها إلا التدريب على القتل ؟ لكن الرواية - التي يهمها جداً تعرية مثل هذه الأنساق لتؤكد أن الدين قناع فقط لإخفاء عورات الذات و شروخها - لا تريد الاستسلام إلى اليأس الداخلي الذي يخيم على مثل هذه الشخصيات ، بل تلجأ إلى خياراتها الأساسية و مسلمات مؤلفها لتصوغ الشخصية الروائية و ما تضطلع به من أفعال . فعندما يضيق السياسي و التاريخي و الديني يتسع الفن ليشمل بظله الأسوياء وأيضاً الخارجين عن كل قوانين الطبيعة. يكفي أن يلتفت المرء إلى صوت الفن في أعماقه ليلمع ببعض السلام مع نفسه و مع الآخر المختلف عنه. لقد علم يونس مارينا بهشاشته و حبه للحياة الآخر ، العدوانية حدّ القتل، كيف يقتل نفسه ليترك نور الحياة للآخرين ، انتصاراً للجميل دائماً في الإنسان . ترد لوليتا على يونس مارينا ، بعدما أهداها اللوحة الثمينة و اقترح عليها أن تبيعها إذا شاءت "لا في هذه الحالة أفضل أن أعلقها على أجمل حائط في بيتي. لن أبيعها لأنني بعد هذه العشرة الجميلة أصبحت أشبهك و يعز علي أن أضع ذاكرتك المتقدة في المزاد" (20) لقد كانت لوليتا تتوقع أن تجد يونس مارينا في صورة أبيها فتقتله دون تردد لتصفي حسابها مع الذاكرة و تنتهي جزءاً من زيف التاريخ . لكنها وجدته فناناً لا دين واضح له غير أنه شهيم من الداخل ، بسخاء عاطفي لا يقدر ، و بإنسانية متصالحة مع ذاتها إلى حد بعيد رغم جراحاتها الغائرة ، فابتعدت عنه مفجرة نفسها " لم تكن في صورة أبي و إلا ما ترددت لحظة واحدة في قتلك . رأيتك في صفائك العشقي ، و أحسست بلذة رجولتك الشهمة و أنوثتي الكبيرة ، و لا حول لي و لا قوة إلا حبك" (21) لوليتا الاستشهادية التي هُيأت للقتل فقط لا قوة لها إلا قوة الحب . لقد قتلها حباً فبادلتها الشهامة بالشهامة . هذا هو الإنسان عارياً من كل أحقاد الهوية و من كافة أشكال الثأر و الانتقام، و متخلصاً من كل أوهامه الإيديولوجية التي غالباً ما تسرق منه شقه الأهل و الأجل. أولم يؤمر القارئ سابقاً - في شرفات بحر الشمال - أن يحافظ على هذا الشق بالذات Ne gache jamais la partie folle en toi elle est la plus juste et la plus humaine (22) «

إن هذه المحن التي مرّ بها وطن البطل و أرخت لها الرواية بشعرية فائقة ستقلب كيانه تماماً فيعيد النظر في مفاهيم الوطن و التاريخ و الدين و الآخر أيضاً، و من هنا تتهدم - في هذه الرواية و في كل نصوص واسيني تقريباً - الصورة النمطية للآخر و تقوم مكانها صورة أخرى صنعها فلسفة التسامح و ثقافة الاختلاف ، الآخر ليس الغريب عنك جنساً و لونا و ديانة كما حاول تاريخ الشعوب دائماً تكريسه ، الآخر هو أخوك الذي يشهر السيف في وجهك لمجرد أنك اختلفت عنه ، و لعل هذا ما يبرر المفارقة التي تحيط ببطل الرواية فهو مطارد منفي مغضوب عليه من قبل أهله ، و محمي من قبل الآخر الذي يختلف عنه أصلاً و لغة و ديانة و ثقافة، و هذا الآخر يحميه ليس بدافع القانون فقط بل بدوافع " إنسانية" عميقة مغلّفة بتعاطف خاص ، تقول ربيكا التي تنتمي إلى الجهاز الأمني الساهر على ضمان استمرارية حياة يونس مارينا مخاطبة دافيد إيتيان " هذا

هو ملف مارينا يا سيدي كما طلبته مني .قرأته كما طلبت مني ذلك ، فتشته جزئية جزئية فلم أجد ما يثير الانتباه إلا التهديدات و حياة مأساوية قضاها مرعوبا . لا يوجد أدنى تناقض في تصريحاته الإذاعية و التلفزيونية و الصحفية . أحيانا أسأل نفسي كيف يستطيع بشر مثل هؤلاء تحمل قسوة الدنيا بكل هذا الشكل المخيف. من شاب ضحية انقلاب لم يكن معنيا حتى سياسيا بما كان يدور من حوله إلى مطاردي في كل مكان ؟ عندما انتهى كل شيء و أراد أن يعود إلى وطنه ، كان الإسلاميون يضعون اسمه على رأس قائمة من يجب قتله لأن روايته عرش الشيطان تمس بالذات الإلهية التي لا أعرف شكلها "(23) وضع يونس مارينا الشخصي و التاريخي إذا محل تعاطف كبير من طرف الأمن الفرنسي و هو بطل في نظرهم إذ استطاع أن يتحمل قسوة وطنه و أبناء جلدته . إن الاحتفاء الشديد بالآخر يتم - كما نلاحظ - من داخل نسقه الثقافي حيث ترى الرواية في مجتمع الآخر مجتمع قانون و عدل و إنصاف تام من جهة، كما تبدو من جهة أخرى منسجمة و فكر الآخر الذي اعتقد دائما أن الخلل في عمليات التواصل الحضاري يكمن في العرب و المسلمين، فوحده العربي و المسلم لا يعرف كيف ينخرط في حضارة الآخر بسلام ، يعلق مارينا " ماذا أقول ؟ أشعر أحيانا بخجل الانتماء لهؤلاء القتلة "(24). وينسى أو يتناسى البطل أنه في الثقافة الأخرى أيضا صورة مرتبكة جدا و خاطئة في كثير من تفاصيلها عن الآخر الذي هو نحن ، و فقط يجتهد بعض العقال في تعديلها "أنا لا أفهم لماذا كل الأقليات مرتاحة و قبلت أن تتجاوب مع ثقافتنا و تعيش فيها بسلام إلا هم. لماذا المصائب الكبرى لا تأتي إلا من السود أو العرب و المسلمين " (25) تقول ماري محاورة دافيد الصارم في عمله و المعتدل أيضا في تفكيره ، و لعل اختيار اسم ماري لتؤدي في الرواية هذه "الوضع" الفكرية له دلالة كبرى لمن يعيش المجتمع الفرنسي عن قرب . فقد لا نبالغ إذا قلنا أن هذه الشخصية المرجعية - حسب تصنيف فيليب هامون - هي صدى لماري لوبان التي تمثل في السياسة الفرنسية اليمين المتطرف الذي لا يتوقف عن الاعتزاز بمخزونه الحضاري و التاريخي و ببعده القومي و الوحدوي "(26) و يعتقد أن كل مشاكله اليومية و الاقتصادية و الأخلاقية سببها هذا العربي المسلم، و أن فرنسا العريقة بتاريخها و حضارتها ستصير غريبة عن نفسها بسبب هؤلاء المهاجرين. لكن هذه الإشارة لا تمنع الرواية من "تعديل" صورة الآخر و اعتبار هذا النمط من التفكير عابرا و استثنائيا أما القارئ فنجد عند أمثال دافيد الذي يرد على ماري بحجج مقنعة " -...أسألي نفسك لماذا نسمع عن العرب و المسلمين كثيرا و لا نسمع عن الآخرين إلا قليلا ؟ هل الأمر صدفة أم يراد له ذلك ؟

-لكنهم هم من أدخل مرض الإرهاب إلى أراضينا الآمنة.

- في الظاهر نعم لكن ليسوا هم من أتى بالنازية ؟ و ليسوا هم من صنع الغيستابو، و الفرق الحمراء و بندرهوف ...و القائمة طويلة . للآخرين مسؤولية ما حتما لكننا نعيد إنتاج مأسينا يا ماري كلما اشتدت الأزمات و غابت الحلول لمشاكلنا...ماري المشكلة أكثر تعقيدا . اخرجني من الثنائية القلقة ، التي تقترض الخيرين من جهة و الأشرار من جهة ثانية ، و سترين بشكل أوضح أن الأشرار و الطيبين هنا و هناك " (27) تريد الرواية بهذه الصورة أن تتجاوز الثنائية الظالمة الأنا الخير / الآخر الشرير و التأسيس للذات الحرة من كل رواسب الفكر الباحث عن تأصيل شبه مستحيل لهوية نقية متعالية بطبعها ، إنها بمعنى آخر تريد التحرر من كل " دروس الهوية التي هيأتنا لكافة أنواع الثار الأخلاقي من الآخر "(28) و هي دروس تبادلتها الشعوب عبر التاريخ كما تبادلت محنها وقد آن الأوان لإعادة النظر فيها ، إذ أن " نفي الآخر هو نفي للذات " (29)

يمكن القول في الأخير إن " أصابع لوليتا" لا تجسد فقط التداخل و " العولمة" الأدبية بما هي إحالة صريحة على رواية "لوليتا" لفلاذيمير نابوكوف ، بقدر ما تطمح إلى عولمة الرواية الجزائرية ، و عولمة القارئ العربي أملا ليس فقط بحوار آداب عالمي بل بحوار هويات ، و إمكانية هذا الحوار لن تتحقق أبدا ما لم تخرج الجماعات البشرية عن هوياتها الثابتة المؤثرة بأصنام الوطن و الدين و اللغة . فالأنا هي كذلك ببهائها الإنساني ، و برغبتها الفطرية في التواصل و الحب و السلام ، و بدفاعها عن حريتها و حرية الآخرين ، بالحرية فقط نضع هويتنا الحقة لا بالدين و لا بالوطن و لا باللغة و لا بالعقل ، فحتى " الجنون إذا تحملناه أصبح عقلا"(30) الجنون ليس نقيض العقل و المنفى ليس نقيض الوطن و المسيحية ليست نقيض الإسلام و فقط يبقى الحب نقيض الكراهية و نقيض الموت. إن " أصابع لوليتا" تتجاوز التفكير بالما بعد إلى عيشه بقناعة

كبيرة و بونام أيضا . و المسألة ليست مسألة فكرية أو فلسفية أفرزتها تيارات ما بعد الحداثة بل هي المعاشية اليومية لما تفكر به الفلسفة. لقد أدرك واسيني هذه الفلسفة فحاول عبر كل أعماله التخلص من أوهام " المقدس " كيفما كان شكله و اجتهد في المقابل ليقم في فضاء الفن ، يرسم بألوان اللغة لوحات الفرح و الحميمية العابرة، فهو يشبه تماما بطله يونس مارينا الذي " بقي طفلا على الرغم من قسوة الحياة و حرائق السنوات العصبية . لا شيء يهمله إلا ما يملأ قلبه دفئا و حرية . ما يشعل حواسه التي تأبى الموت " (31) و كافة أشكال النمطية.

هوامش القراءة:

- 1- عبد الفتاح كيليطو : لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب، ط2، 2001، ص23.
- 2- فتحي المسكيني : الهوية و الحرية نحو أنوار جديدة ، جداول للنشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1، 2011، ص13.
- 3- واسيني الأعرج : أصابع لوليتا ، إصدار مجلة دبي الثقافية ، دار الصدى ، ط1، 2012.
- 4- عبد الفتاح كيليطو : لسان آدم ، ص66.
- 5- واسيني الأعرج : أصابع لوليتا ، ص179.
- 6- فتحي المسكيني : الهوية و الحرية ، ص15.
- 7- واسيني الأعرج : أصابع لوليتا ، ص157.
- 8- نفسه ، ص121.
- 9- عبد الله القصيمي : العالم ليس عقلا ، ط1 ، 1963 ص 09.
- 10- واسيني الأعرج : أصابع لوليتا ، ص414.
- 11- نفسه ، ص198.
- 12- نفسه ، ص116.
- 13- نفسه ، ص126.
- 14- نفسه ، ص19.
- 15- فتحي المسكيني : الهوية و الحرية ، ص14.
- 16- واسيني الأعرج : أصابع لوليتا ، ص188.
- 17- نفسه ، الصفحة نفسها.
- 18- مجموعة مؤلفين : فلسفة الدين مقول المقدس بين الإيديولوجيا و اليوتوبيا و سؤال التعددية ، منشورات ضفاف ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2012، ص 237.
- 19- أصابع لوليتا ، ص310-309.
- 20- نفسه ، ص406-405.
- 21- نفسه ، ص405.
- 22- واسيني الأعرج : شرفات بحر الشمال ، دار الفضاء الحر ، الجزائر ، ط1، 2001، ص61.
- 23- أصابع لوليتا ، ص263.
- 24- نفسه ، ص349.
- 25- نفسه ، ص137.
- 26- محمد شوقي الزين : الذات و الآخر تأملات معاصرة في العقل و السياسة و الواقع ، منشورات ضفاف ، بيروت ، لبنان ، ص 42.
- 27- أصابع لوليتا ، ص136-137.
- 28- فتحي المسكيني : الهوية و الحرية ، ص14.
- 29- محمد شوقي الزين : الذات و الآخر ، ص73.
- 30- أصابع لوليتا ، ص243.
- 31- نفسه ، ص51.